المحاضرة الْحَادِيَة عشر

البعد النقدي للشروح

الأستاذان: ـ زروقي عبد القادر

ـ داود امحمد

الشروح الأدبية عموما أو الشعرية بوجه أخص هي من صميم النقد التطبيقي وإن كانت في أغلبها اتسمت بالشكل اللغوي، إذ إنها تتضمن الكثير مما يعود على الأبحاث اللغوية والبلاغية والنقدية بالغنى، كما أننا نجد فيها تنوعا كبيرا في اتجاهات الشارحين وفي مناهجهم القرائية، مما يمكن أن يعد ثروة فنية ومنهجية قيمة تحفل بها المدونة النقدية العربية القديمة.

لذلك يمكننا عدّ هذه الشروح جزءا من الجهد النقدي العربي القديم الذي اتخذ أشكالا متنوعة تحفظ أهميتها ومكانتها في الدرس النقدي القديم بما يسمح لها أن تنضاف الى الكتب النظرية، والمصنفات التطبيقية الأخرى.

مكانة الشروح الشعرية في العمل النقدي:

صحيح إن الشروح الشعرية لم تكن عملا نقديا تنظيريا خالصا اعتمادا على الملاحظات التي نكتشفها من كثير من مدونات هذه الشروح الشعرية التراثية، كقلة عناية الشراح بالمصطلحات البلاغية والنقدية. وعدم التزامهم بمنهجية البحث البلاغي والنقدي القائم على تمثل كل أبواب البلاغة وقضايا النقد الأدبي، لأنّ جل جهدهم تميز عموما بالإيجاز في عرض المباحث والفنون البلاغية والوقوف على دراستها وتحليلها، كما أنهم اكتفوا بالاقتضاب في عرض مسائل النقد وقضاياه دراسة وتحليلا.

لكن ومع ذلك فإننا نلمس ملامح الأهمية النقدية في تلك الشروح من خلال تطرق أصحابها إلى القضايا النقدية التالية:

1. الانتحال؛ عمود الشعر؛ أغراض الشعر العربي؛ السرقات؛ القدم والحداثة.
2. احتفال الشراح بالسرقات الشعرية، فهم لم يعدوها عارًا، بل نظروا إليها من زاوية فنية دعت بعضهم إلى امتداح إعادة المعنى بلفظ جديد أوفى بأداء المعنى،

3. إجادة الشراح في دراسة الخصائص الأسلوبية وإن كان هذا متصلا بنظرية النظم عند البلاغيين خصوصا والنقاد العرب القدماء على وجه العموم.

4. . استعراض الروايات والترجيح بينها. من خلال الاعتناء بمذهب الموازنة في النقد بطريقة المماثلة أو الضدية.

5. . التوسع في عرض وجوه من التفسير لبيت أو تركيب، وإن كان هذا الشكل قائما على المايزة بين لفظة وأخرى أو تركيب وآخر، والبحث عن سر اصطفاء الشاعر لهذا ودرئه لذلك.

6. الاهتمام بالشرح والتفسير وإطلاق أحكام القيمة، مما يسمح بتمثل ملامح تاريخ الأدب ووصف الأنواع وتصنيفها. ولذلك تحظى الشروح الأدبية باهتمام خاص في باب الدراسات الأدبية باعتبارها مادة أساسية تزود الباحث بصورة عامة عن مناهج القراءة النقدية عند القدماء.

7. البحث عن ملامح العمل الشعري.

8. استناد الشارح إلى ذوقه وإدراكه للقيمة الجمالية الكامنة في النص، بما يتيح له اختيار مجموعة شعرية أو ديوان كامل.

وتلخيصا لكل ذلك يمكننا استحضار رأي الأستاذ رضوان الداية في هذا الشأن حيث يقول: "وباستطلاع كتب التراجم الأندلسية، نلاحظ كثرة واضحة في كتب الشروح، من أوائل عهد التأليف المعروف لدينا إلى أواخر أيامهم في غرناطة؛ فإذا لاحظنا قلة تراث الأندلسيين في الدراسات البلاغية والنقدية، وبخاصة من الوجهة النظرية، أمكننا تفسير هذه الكثرة؛ فكأنهم انصرفوا إلى الشروح مكتفين بتذوقهم هذا واستخلاص القيم الجمالية من النصوص نفسها، وكأنهم أيضا مالوا إلى سوق الذوق والتذوق .. ونحن لا نعدم ملاحظات بلاغية ونقدية أغلبها تطبيقي..." محمد رضوان الداية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 72.

أهمية الشروح الشعرية في الحركتين الأدبية والنقدية

تعد الشروح الشعرية ثمرة جهود علمية ونتاج أذواق فنية ونظرات نقدية وحساسيات جمالية، يمكنها أن تكون واجهة عملية لحركية التأليف النقدي التطبيقي، من خلال ما تستهدفه من غايات لغوية وتعليمية ونقدية وتاريخية...، كأنْ يرمي الشارح إلى تمكين المتلقي من فهم المتن الشعري وجعله سهلا ميسرا، متجاوزا كل صعوبة كامنة في النص، تحول دون إدراك القراء لفحواه.

كما قد يقصد الشارح في عمله الكشف عن القيم الخفية للمتن المشروح (الأدبية، البلاغية، اللغوية، الاجتماعية...)، من خلال الغوص في القضايا النحوية واللغوية والبلاغية والفنية عموما، بل قد يتعدى إلى تصحيح أخطاء الرواة والنساخ للمتن الشعري أو لشروحه على حد السواء.

كل ذلك كان استنادا على أنّ الشعر عند العرب هو ديوانهم ومجمع مفاخرهم ومناقبهم، فتوجب شرحه وتوضيح غوامضه وأسراره، وراح الشراح يلتمسون السبل الموضحة لغرض الشاعر، وإزالة اللبس الذي نسميه أحياناً بـ(الغموض) النابع من التعارض بين الدلالة المعجمية وما يفهم من السياق الخاص، قصد الوقوف على مضامين ومحتويات المتن المشروح، باعتبارها تمثل نوعا من الجدة والطرافة، أو تمثل جانبا من جوانب الحياة الإنسانية يستوجب شيئا من العناية والدرس. وفي هذا المجال نشير إلى ما ذهب إليه الأصمعي حين قال: قرأت على خلف شعر جرير، فلما بلغت قوله:

ويوم كإبهام القطاة محبّب ... إليّ هواه غالب لي باطله

رزقنا به الصّيد الغرير ولم نكن ... كمن نبله محرومة وحبائله

فيالك يوما خيره قبل شرّه ... تغيّب واشيه وأقصر عاذله

فقال: ويله! وما ينفعه خير يؤول إلى شر؟ قلت له: هكذا قرأته على أبي عمرو.

فقال لي: صدقت، وكذا قاله جرير؛ وكان قليل التنقيح مشرّد الألفاظ؛ وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع. فقلت: فكيف كان يجب أن يقول؟ قال: الأجود له لو قال:

فيا لك يوما خيره دون شرّه

فاروه هكذا؛ فقد كانت الرواة قديما تصلح من أشعار القدماء. فقلت: والله لا أرويه بعد هذا إلا هكذا. المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، ص: 165.

وهو الشيء ذاته الذي صرح به الشارح للامية العرب سعيد الماغوسي (ت: 1016هـ) في كتابه الذي سماه « إتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب». إذ جاء في قوله:

« ... وبعد، فلما كان الشعر ديوان العرب، والترجمان المفصح عما لهم من الأدب، والصوان الحافظ لمآثرهم، والسلك الجامع لمفاخرهم... وكان الفحص عن غرر حقائقه، والغوص من على

درر دقائقه، مطمحا لأعين الفضلاء، ومسرحا لِأَفْهُمِ الأذكياء، لا سيما شعر العرب العرباء... اخترت من بين قصائدهم لامية العرب، وتتبعت أبياتها بشرح يبلغ منها أقصى الأرب، لأن ألفاظها أصبحت من الهجران في غداة قرة، ومعانيها باتت من عدم الاعتناء بليلة حرة، والذي دعاني إلى ذلك غرضان سيان:

أحدهما: ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه حظ على تعليمها وتحصيلها، ونص على تقديمها وتفضيلها.

والثاني: أن أسعفت طالبيها بقواعد تصريفية في فصول لغوية أمهدها، وأتحف قاصديها بفوائد نحوية في عوائد معنوية أسردها، لعلمي أن فهم كلام الله لا يتيسر على الوجه الأحكم، ولا يتبين معناه على الطريق الأقوم، إلا بمعرفة دقائق اللغة والإعراب، والإحاطة بما يوجد من النكت في كلام الأعراب» إتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب. صص: 1- 3.

لذا فإنَّ شروح الشعر لم تقف عند التفسير اللغوي والإعراب النحوي فحسب، بل تجاوزته إلى عرض الروايات المختلفة، وشرح المعنى بصور متعددة، كما كانت عناية الشراح واضحة في النواحي الأدبية والنقدية والبلاغية في أثناء تحليلاتهم لمحتوى النص الشعري، والموازنات والمقارنات، مع بعض الإشارات النقدية، هذا بالإضافة إلى الطريقة المنهجية التي سلكها كثير من الشراح في ترتيب القصائد المشروحة على حروف المعجم كما فعل أبو محمد الأنباري (304هـ)، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (328هـ)،أبو بكر الصولي (335هـ)،الآمدي (370 هـ)، المرزباني (384هـ)، أبو عبد الله النمري (385هـ)،ابن جني (392هـ) وغيرهم كثير. ينظر: عبد الله عبد الرحيم عسيْلان، حماسة أبي تمام وشرحها، ص: 60.

لذلك فإن منهج الشرح يتطلب ملكة فائقة لدى الشراح وهو ما قال به محمد مندور: "لا يحسبن أحد أن الاتجاه التفسيري في النقد أقل مشقة من الاتجاه التقييمي والتوجيهي، ذلك لأنه إذا كان التقييم والتوجيه يحتاجان إلى التمتع بحاسة جمالية مرهفة أو إلى الإيمان بقيم إنسانية واجتماعية معينة، فإن الاتجاه التفسيري يحتاج إلى ثقافة وخبرة بالغة" محمد مندور، النقد والنقاد المعاصرون، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1997، ص: 209.

كما أن هذا المنهج يفيد في تبيين معالم الذوق النقدي، ويكشف عن بعض اتجاهات الدارسين هناك، واهتماماتهم الأدبية واللغوية، ويعرض بين الفينة والفينة إلى قضايا تمس موضوع النقد مسّا

مباشرا، وهي إلى ذلك تكشف عن مقاييس نقدية وبلاغية ...لم تترك لنا كتب الأدب عامة ولا ما تبقى من كتب النقد عنها شيئا واضحا. ينظر، محمد رضوان الداية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 69.

وهو ما رآه عبد الجواد السقاط كذلك من أنّ الشروح الأدبية مصدر مهم يطلع بفضله الباحث على مسيرة النقد الأدبي ، باختلاف نوعه وخصائصه كأن يكون هذا النقد انطباعيًا أو تطبيقًا أو جملة من المواقف والآراء النقدية التي يسعى صاحبه بفضله إلى وضع قواعد وأسس يتقوم بها النقد الأدبي. ينظر، عبد الجواد السقاط، مدخل إلى الشروح الشعرية في الأدب المغربي، ص: 289.

هكذا يترسخ لدينا ويصبح مما لا شك فيه أن عمل الشرح ليس بالإنجاز الهين الذي يفتقد صفة الإبداع، أو يكتفي فيه صاحبه بحَلّ ما استشكل من القول، وإيضاح الغامض منه، وتبسيط ما صعب إدراكه أو ما تعذر فهمه، ولكنه عمل متكامل نابع من رؤية ناضجة وواضحة، ومعبر عن تجربة خاصة في القراءة وعن موقع معين يزاول من خلاله الشارح عملية التحليل والشرح.

وقد نلخّص كل ما سبق في ما صرح به محمد رضوان الداية عن سمت طائفة من الشراح في ضبط النص الأدبي "عرفت مجموعة من الشراح بالضبط في النقل، والدقة في الجمع، والتثبت في الرواية، والعناية بالشروح، وحفظوا لنا مجموعات شعرية ودواوين مفردة أحياناً" محمد رضوان الداية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 71.

خلاصة حول البعد النقدي للشروح:

إذا نحن حاولنا الوقوف عند أهمية الشروح الشعرية، أدركنا أنها أهمية تتظافر في تأكيدها عناصر متعددة نوجزها في ما يلي:

1) تعتبر الشروح الشعرية مصدرا مهما من مصادر الأدب عامة، والشعري منه خاصة، ولونا من ألوان النقد الأدبي، إذ أنها وجه آخر من وجوه المصنفات التي تعلقت بالمعرفة في بعدها النقدي بوجهه العام، حيث يرجع إليها الباحث اليوم، ليستخرج منها مجموعة من النصوص الإبداعية. ومن ثم، فهذه الشروح مادة أساسية لا يستغني عنها الدارس في حقل الأدب عامة، كما لا يمكن له إلا أن يعدها مصدرا لا يقل في أهميته عن الدواوين والمجموعات الشعرية.

2) تمثل هذه الشروح المرجعية الثقافية الموسوعية للشراح والمجتمعات على حد سواء، فهي تعكس الثقافة القومية بمختلف اتجاهاتها العديدة منها الديني والتاريخي واللغوي والأدبي...

كما تجمع هذه الشروح بين المادة التاريخية واللغوية والدينية والفقهية والأدبية التي كان الشارح متسلحا بها.

3) تعتبر هذه الشروح . إلى جانب كونها مصدرا للنصوص . مصدرا مهما كذلك، يطلع منه الباحث على مسيرة النقد الأدبي، سواء كان هذا النقد انطباعيا أو تطبيقيا أو كان جملة من المواقف والآراء النقدية التي تسعى إلى وضع القواعد والأسس التي يتقوم بها وعليها النقد الأدبي.

بعض الشروح الشعرية

في الختام يمكننا التمثيل لمجموعة من الأعمال التي تمكنت في حقل الدرس الأدبي من أن تعكس ذلك المنهج المتميز لتلك الشروح التي صنعت لدواوين الشعراء مفردة، أو لديوان قبيلة كهذيل، أو لمجموعات شعرية كالمعلقات أو غيرها ومنها:

1) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر الأنباري.
2) شرح القصائد التسع المشهورات لأبي جعفر أحمد بن النحاس.
3) شرح ديوان المتنبي المسمى بـ "الفسر الكبير" لابن جني أبي الفتح.
4) تفسير أرجوزة أبي نواس في الفضل بن الربيع والكتابان الأخيران لابن جني أيضا.
5) الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي وهذا المصنف يسلك ضمن هذه الطائفة لأنه أقرب إليها إذ يتعقب (ابن جني) الأبيات ويعلق عليها في إطار المشكلات والالتباسات.
6) التمام في أشعار هذيل مما أغفله السكري.
7) . شرح اختيارات المفضل – الخطيب التبريزي
8) . شرح ديوان الحماسة - الخطيب التبريزي
9) . شرح القصائد العشر – الخطيب التبريزي
10) . شرح مشكلات ديوان أبي تمام – المرزوقي
11) . شرح ديوان الحماسة - المرزوقي

المحاضرة الحادية عشر: النقد النقدي للشروح